# التَّغَيُّرُ المَنَاخِيُّ بِوَصفِهِ تَجسِيداً للتَّرَفِ
## قِرَاءَةٌ كَلَامِيَّةٌ فِي عَلَاقَةِ الاستِهْلَاكِ بِالهَلَاكِ

**الشيخ شادي علي**[1]


### ملخّص

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل العلاقة الجدليَّة بين مفهومي الاستهلاك والهلاك من منظور كلامي يستند إلى التراث الإسلامي، وذلك من خلال بيان تحوُّل الإنسان في ظلِّ هيمنة النموذج الرأسمالي من موقع الخلافة القائمة على العمارة والإصلاح إلى موقع الاستهلاك القائم على الاستنزاف والإفساد. وتؤكِّد الدراسة أنَّ التغيُّر المناخي لا يقتصر على كونه ظاهرة فيزيائيَّة بل يعكس خللاً روحيًّا وخُلُقيًّا نابعًا من هَيمنَة الترف بوصفه نمطًا وجوديًّا يحوّل الإنسان إلى كائن مستهلك. وتبيّن أنَّ الأزمة البيئيَّة تمثِّل تفعّلاً لسُنن كونيَّة وتاريخيَّة جاءت ردًّا حتميًّا على طغيان الإنسان وإخلاله بالموازين، انسجامًا مع التصوُّر القرآني في ارتباط الفساد بالسلوك البشري. كما تعالج الدراسة مفهوم إهلاك القرى باعتباره قانونًا سُنَنيًّا يربط بين الترف الاقتصادي والدمار الكوني وتخلص إلى محدوديَّة الحلول التقنيَّة في ظلِّ مفارقة (وليام جيفونز-William Jevons) التي تُظهر أنَّ الكفاءة قد تزيد الاستهلاك. وفي المقابل، تقترح الدراسة بديلاً خُلُقيًّا يقوم على استعادة مفهومي الحياة الطيِّبة والاقتصاد بمعنى القصد، مستلهمة نموذج الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في عمارة الأرض وترسيخ مبدأ الاستخلاف والمسؤوليَّة البيئيَّة لحماية الوجود الإنساني من الهلاك.


**الكلمات المفتاحية:** الترف، التغيُّر المناخي، السُنن الكونيَّة، الرأسماليَّة الاستهلاكيَّة، عمارة الأرض.

١ - باحث في الدراسات الإسلاميَّة من مصر، وطالب في الحوزة الدينيَّة في لبنان.

# Climate Change as Embodiment of Luxury Theological
## Reading of Relationship between Consumption, Destruction

Shaykh Shadi Ali[1]


## Abstract

This study aims at analyzing the dialectical relationship between the concepts of consumption and destruction from a theological perspective grounded in the Islamic intellectual tradition. It examines how, under the dominance of the capitalist model, the human being has shifted from the position of stewardship based on cultivation and reform to one of consumption based on depletion and corruption. It argues that climate change is not merely a physical phenomenon but also reflects a spiritual and moral imbalance resulting from the dominance of luxury as an existential mode that transforms humans into consumers. It demonstrates that the environmental crisis represents the activation of universal and historical laws as an inevitable response to human transgression and the disruption of balance, in accordance with the Qur'anic view that links corruption to human behavior.

The study also addresses the concept of the destruction of cities as a normative law that connects economic luxury with civilizational and cosmic collapse. It concludes by highlighting the limitations of technical solutions in light of the Jevons Paradox, which shows that increased efficiency may lead to greater consumption.

In contrast, the study proposes an ethical alternative based on reviving the concepts of the "good life" and economy understood as moderation. This alternative draws inspiration from the model of Imam Ali bin Abi Talib, emphasizing the cultivation of the earth and the reinforcement of the principle of stewardship and environmental responsibility in order to protect human existence from destruction.



## Keywords:

Luxury, Climate Change, Cosmic Laws, Consumer Capitalism, Prosperity of the Earth.


1 - Researcher in Islamic studies from Egypt, student at a religious seminary [Hawza] in Lebanon.

## مقدّمة

تحوَّل الإنسان، في ظلِّ هيمنة النموذج الرأسمالي الاستهلاكي، من رتبة «الخلافة» التي تقتضي العمارة والإصلاح إلى رتبة «الاستهلاك» التي تقوم على الاستنزاف والإفساد، هذا التحوُّل الجذري في وظيفة الإنسان الوجوديَّة، المدفوع بثقافة «الترف» التي جعلت من اللذَّة الماديَّة غاية نهائيَّة، أدَّى إلى تفعيل سُنن كونيَّة وتاريخيَّة لا تستثني أحدًا؛ فالأرض، بصفتها مخلوقًا مسخّرًا، جاء ردّها على طغيان الإنسان على شكل اختلال في الموازين المناخيَّة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١].

ليست الأزمات البيئيَّة مجرَّد حوادث عرضيَّة أو نتائج جانبيَّة للنشاط الصناع بل إنَّ التغيّر المناخي، بكلّ ما يحمله من مظاهر كارثيَّة مثل التصحُّر، والفيضانات، وانقراض الأنواع، ليس في حقيقته إلا "تجسيدًا ماديًّا" لخلل روحي وخُلُقي يضرب في جذور الحضارة الحديثة، هذا الخلل ينطلق من مفهوم "الترف" والرغبة الجامحة في الاستهلاك التي كرّستها الرأسماليَّة الحديثة، محوِّلةً الإنسان من "خليفة" مستأمَن على الأرض إلى "مستهلِك" يستنزف وجوده ووجود ما حوله.

في هذا الدراسة، نسعى لتفكيك العلاقة الجدليَّة بين "الاستهلاك" و"الهلاك" من منظور كلامي، استنادًا إلى التراث الإسلامي الأصيل في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتفسيراتهم للنص القرآني ... منطلقين من فرضيَّة أنَّ "الترف" ليس مجرَّد وفرة في المال، بل هو حالة طغيان وجودي، وأنَّ "الفساد في البرّ والبحر" هو النتيجة الحتميَّة لهذا الطغيان، وأنَّ الحلَّ يكمن في استعادة مفهوم "الحياة الطيبة" باعتبارها بديلاً عن "حياة الترف".

في هذا السياق، لا بدَّ من قراءة التغيُّر المناخي ليس باعتباره ظاهرة فيزيائيَّة فحسب، بل رسالة "تكوينيَّة" من الخالق تشير إلى أنَّ النظام الكوني يلفظ النمط الاستهلاكي الذي فرضته "الرهط المفسدون" في الأرض، والمتمثِّلون اليوم في الشركات العابرة للقارات والمنظومات الرأسماليَّة.

## أوَّلًا: فلسفة الترف.. الجذور الكلاميَّة للنزعة الاستهلاكيَّة

### ١. الترف: من الوفرة إلى الطغيان

في المعجم القرآني، لا يأتي مصطلح «الترف» ومشتقاته (أترفتم، مترفيها) إلا في سياق الذم والوعيد، والترف لغويًّا يعني التوسّع في النعمة وسعة العيش، لكنَّه اصطلاحيًّا -في الفكر الإسلامي- يمثِّل حالة نفسيَّة واجتماعيَّة تتجاوز مجرَّد الغنى لتصل إلى «البطر» و«الأشَر» وإنكار الحقّ، يقول في «مجمع البحرين»: «والمترف: المتنعم، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا**﴾ [سبأ: ٣٤]... والمترف: الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش»[١]، فالمترف هو ذلك الكائن الذي طغت عليه النعمة فأنسَتْه المنعم، وتحوَّلت الوسيلة (المال والموارد) لديه إلى غاية في ذاتها، ما جعله في حالة صدام دائم مع سُنن الاعتدال الكونيَّة.

إنَّ الجذر الأساس للشقاء البشري هو انطماس الفطرة وتغييب العقل تحت وطأة الشهوات، والترف هو المخدِّر الذي يُغيِّب العقل، ويجعل الإنسان أسيراً لغرائزه، فيتحوَّل من كائن عاقل يدير الموارد بحكمة إلى كائن تقوده «قوَّة الشهوة» نحو «الشراهة» أو «قوَّة الغضب» نحو «التهوُّر»، يقول الشيخ (محمد مهدي النراقي): «إنَّ للنفس أربع قوى: ... وقوَّة شهويَّة بهيميَّة، وهي التي يصدر عنها الشهوة والحرص على المأكل والمنكح... وقوة غضبيَّة سبعيَّة، وهي التي يصدر عنها الغضب والوثبة على الغير... فإذا غلبت القوة العاقلة على الثلاث الأخر وصارت هي قاهرة لها ومستوليَّة عليها... صارت أمورها في اعتدال... وإن غلبت إحدى الثلاث الأخر عليها، قهرتها واستخدمتها، وحينئذ يكون العقل كالأسير في يد الشيطان»[٢]، وهذه الشراهة هي

١ - فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين، ج ٥، ص ٣٤. (مادة «ترف»).
٢ - محمد مهدي النراقي: جامع السعادات، ج ١، ص ٥١.

المحرّك الأول للرأسـماليَّة الاستهلاكيَّة التي لا تعترف بحدودٍ للكفاية بل تخلق حاجات وهميَّة مسـتمرّة لتغذية دورة الإنتاج والاستهلاك، ما يؤدِّي حتمًا إلى استنزاف الموارد الطبيعيَّة، ويصبح مصـداق الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَـانُ ازْدَادَ عَطَشًا حَتَّى يَقْتُلَهُ»[١].

## ٢. الترف حجاب عن «الحياة الطيبة»

إنَّ الترف يمثِّل النقيض الجذري لمفهوم «الحياة الطيبة» كما يطرحه الفكر الإسلامي؛ فالحياة الطيبة ليسـت «الحياة المطلقـة» أو الحياة البيولوجيَّة المرفَّهة، بل هي «تجسـيد للقيم» وإدراك لحقيقـة الذات المخلوقة في صلتها بالخالق، ويـأتي الترف ليقطع هذه الصلة؛ لأنَّه يوهم «الأنا المخلوقة» بالاسـتغناء، فيقع الإنسان في فخّ «التماثل» مع الخالق في صفة الغنى المطلق، بينما هو في الحقيقة «مخلوق مفتقر».

ويرتبط الترف في القرآن ارتباطًا وثيقًا بمفاهيم ثلاثة تشكِّل مثلَّث الهلاك:

أ. **الغفلة:** حيث يعيش المترف في سكرة اللذَّة التي تحجب عنه رؤية الحقائق والعواقب. هذه الغفلة ليسـت مجرَّد سـهو بل هي عمى البصيرة الذي يجعل الإنسـان لا يدرك الترابط بين سلوكه ومصيره.

ب. **الفسـق:** وهو الخروج عن طاعة الله وعن نظام الفطرة. يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِـكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَـقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَـوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء: ١٦]. يشير المفسِّرون، كالعلامة الطباطبائي في الميزان، إلى أنَّ "أمرنا" هنا قد يكون أمرًا تكوينيًّا بظهور آثار أعمالهم، أو أمرًا تشريعيًّا بالطاعة فيخالفونه بالفسق، فتتحقَّق سُنَّة الهلاك الحتميَّة[٢].

ج. **الاستكبار:** المترفون هم دائمًا في طليعة المكذِّبين للرسل والمصلحين؛ لأن دعوات

١ - الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٣١٦. (باب «حب الدنيا والحرص»، ح ٦).
٢ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٥٨.

الإصــلاح (بما فيها الإصلاح البيئي اليوم) تهدّد مصالحهم القائمة على الاســتغلال الجائر[١]. يقول تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [سبأ: ٣٤].

تُظهر الأبحاث أنَّ الرأســماليَّة باعتبارها نظامًا اقتصاديًّا تعطي الأولويَّة القصوى للربح والنمو المســتمرّ، وتعمل على تشــكيل أنماط حياة الناس من خلال تعزيز الاستهلاك المفرط. في هذا النظــام[٢]، لم يعد الهدف تلبية الحاجات الأســاس للبشر، بل خلق حاجات جديدة باســتمرار لضمان دوران عجلة الإنتاج[٣]، وعندما يصبح الترف هدفًا، يفقد الإنسان «الدور الوظيفي» الذي خُلق من أجله، وهو «عمارة الأرض» وإقامة الحقّ[٤]، فيتحوَّل الوجود الإنساني من «وجود غائيّ» مســؤول إلى وجود عبثي استهلاكي، وهذا التحوُّل الأنطولوجي هو الجذر العميق لأزمة المناخ وإن تعدَّدت الأسباب الظاهريَّة؛ فالإنسان الذي لا يرى في الكون إلا مستودعًا لشهواته لن يتورَّع عــن حرق الغابات وتلويث المحيطــات لتلبية رغبة آنيَّة، متجاهلاً البُعد الأخروي والمســؤوليَّة والاستئمان على الموارد التي استأمنه الخالق العظيم عليها.

### ٣. الرأسماليَّة: مأسسة «النفس الأمَّارة»

لقــد نجحت الرأســماليَّة الحديثة في تحويل «الــترف» من رذيلة فرديَّــة إلى «نظام عالمي» ومؤسَّســة حاكمة؛ حيث تشــير الدراســات الاقتصاديَّة الإســلاميَّة النقديَّة إلى أنَّ الرأسماليَّة، من خلال آليَّات «الســوق الحر» غير المنضبطة خُلُقيًّا، قد أطلقت العنان لقوى الســوق لتلتهم الحقوق[٥]؛ حيث نجحت الثقافة الاستهلاكيَّة في إعادة صياغة القيم الإنسانيَّة، فأصبح «امتلاك الســلع الفاخرة» هو المعيار الأوَّل للنجاح والمكانة الاجتماعيَّة؛ حيث تشــكِّل الرأسماليَّة قيم

١ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٣٧٦.

2 - John Kenneth Galbraith: The Affluent Society, p. 128.

٣ - محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص ٣٣٦.

٤ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٣١٠.

٥ - محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص ٣٣٥.

المجتمع لتدور حول التملُّك، وهذه الدورة الخبيثة تعني: مزيدًا من الاستهلاك يؤدِّي إلى مزيد من النفايات ومزيد من انبعاثات الكربون، ما يفاقم التغيُّر المناخي. هذا يتطابق تمامًا مع الوصف القرآني لحالة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾؛ حيث يصبح التكاثر في الأموال والأشياء هو الشغل الشاغل الذي يلهي عن الغاية الحقيقيَّة للوجود[١].

### ٤. الاستهلاك دين جديد

في هذا النظام، يجري هندسة «سلوك المستهلك» ليكون في حالة جوع دائم؛ حيث الاستهلاك لم يعد تلبيةً لحاجة[٢]، بل أصبح ذاتًا وهويَّة، ليستبدل «مجتمع الاستهلاك» القيم الروحيَّة بالسلع الماديَّة بوصفه تجسيدًا حديثًا لمفهوم «المترفين» الذين وصفهم القرآن، والذين يقيسون الوجود بمقياس التملُّك. وتأتي خطورة هذا النموذج في أنَّه نموذج «خطّي» في توسّع غير نهائي في عالم «دائري» ومحدود الموارد؛ فالرأسماليَّة تفترض نموًّا غير نهائي في كوكب ذي موارد محدودة، وهي مفارقة منطقيَّة ووجوديَّة أشار إليها تقرير «حدود النموّ» لنادي روما عام ١٩٧٢ الذي حذَّر من أنَّ استنزاف الموارد غير المتجدِّدة سيقود إلى انهيار النُظم البيئيَّة. ومع ذلك، فإنَّ "عقيدة الترف" التي تحكم الاقتصاد العالمي تجاهلت هذه التحذيرات، مدفوعة بـ"الجشع" الذي وصفه أئمَّة أهل البيت عليهم السلام بأنَّه محرِّك الشرور "رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا"[٣]، ما أدَّى إلى تسارع وتيرة التدهور البيئي.

## ثانيًا: جدليَّة الهلاك والاستهلاك.. قراءة في آيات «هلاك القرى»

### ١. نظريَّة الارتباط الوجودي بين العمل والحدث الكوني

لعلَّ من أهمّ الإسهامات التي تقدِّمها المدرسة الكلاميَّة الشيعيَّة المعاصرة هي فكرة «العلاقة

---

١ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص ٣٥٢.

2 - Donella H. Meadows, et al.: The Limits to Growth, p. 23.

٣ - الكليني: الكافي، ج ٢، ص ١٣١. (باب «حب الدنيا والحرص»، ح ١).

التكوينيَّة» بين أفعال الإنسان والحوادث الكونيَّة[١]، خلافًا للنظرة الماديَّة التي تفصل بين «القانون الخُلُقي» و«القانون الطبيعي»، يرى القرآن أنَّ هناك وحدة في النظام، وأنَّ لهذا العالم كما يعبّر العلامة الطباطبائي: «شعورًا بالحسنات والسيِّئات، وفهمًا للطاعة والمعصية..»[٢]، ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾، أنَّ الكون ليس مادَّة صمَّاء لا تتأثَّر بالمعنويِّات بل إنَّ للأعمال "تجسُّدًا" و"تمثُّلًا" خارجيًا؛ فالذنوب، وتحديدًا ذنوب الظلم والإفساد والإسراف، تُحدِث أثرًا "وضعيًا" في عالم الطبيعة[٣]؛ حيث إنَّ «الفساد» في الآية يشمل الكوارث البيئيَّة من قحط، ومحق للبركة، وانتشار للأوبئة، وتلوث للهواء والماء[٤]، وها هنا الآية تقرّر قانونًا سببيًا: فالمقدمة (بما كسبت أيدي الناس) تؤدّي إلى نتيجة (ظهر الفساد)، أمَّا الهدف التربوي فهو (ليذيقهم): التعبير القرآني «ليذيقهم بعض الذي عملوا» يشير إلى أنَّ الكوارث البيئيَّة تحمل وظيفة تنبيهيَّة ابتلائيَّة؛ حيث إنَّ تذوق مرارة التلوّث، وحرارة الجو، وشح المياه، هو ارتداد لعمل الإنسان إليه لعلّه يستفيق من غفلته ويعود إلى التوازن.

## ٢. الطبيعة كيان واعٍ: فلسفة (ملا صدرا) والبيئة

لتعميق هذا الفهم، نستحضر الفلسفة الصدرائيَّة التي ترى أنَّ الطبيعة ليست ميْتة بل هي سارية الحياة والشعور، يقول (ملا صدرا): «فالوجود عندنا مساوق للحياة... فجميع الموجودات عند أهل الكشف واليقين حيَّة ناطقة شاهدة عالمة ببارئها ومبدعها، مسبحة بحمده، مطيعة له، ساجدة له»[٥]، أي إنّ كلَّ موجود في الكون له نصيب من الإدراك والحياة ويسبّح بحمد ربّه، وإنَّ الحيوانات، والنباتات، والجمادات هي «أمم» تسبِّح الله، يقول العلامة الطباطبائي:

١ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ١٩٦.
٢ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٧٥.
٣ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٨، ص ٦١.
٤ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٣، ص ١١٣.
٥ - صدر الدين الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقليَّة الأربعة، ج ٦، ص ١١٧.

«... ومن المعلوم أنَّ حقيقة التسبيح وهي التنزيه القولي لا تتم إلا مع العلم... وسريان العلم في الموجودات يستلزم سريان الحياة فيها، فالآية من المُثبتات لحياة الأشياء كلّها، ولعلمها وشعورها»[١]، ويقول في موضع آخر: «... والتأمّل في أحوال هذه الأنواع من الحيوان... يعطي أنَّها على مسير حياتها تشعر بما يشعر به الإنسان من الرأي والعقيدة، فلها عقائد وآراء فرديَّة واجتماعيَّة، تبني عليها حركاتها وسكناتها... ويستنتج من ذلك أنَّها ستحشر كما سيحشر الإنسان»[٢]، ما يجعل التدمير البيئي وتلويث المحيطات هو بمثابة «إسكات» لهذا التسبيح الكوني، وقتل لأمم عابدة، هذا البُعد يضفي على الإفساد البيئي بُعدًا معنويًّا يتجاوز الضرر المادي إلى «الإفساد في الملكوت»؛ فبناءً على وحدة الوجود والترابط بين العوالم، فإنَّ صدور المعصية (كالترف والإسراف) من الإنسان (وهو خليفة ومركز الدائرة) يؤثّر سلبًا على جريان الطبيعة، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «وَجَدْنَا فِي كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: ... إِذَا كَثُرَ الْجَوْرُ وَظَهَرَ الْمُنْكَرُ ذَهَبَتِ الْبَرَكَاتُ»[٣].

### ٣. التفسير السُنني لآية الإسراء

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء: ١٦]. هذه الآية تمثِّل السُنَّة التاريخيَّة التي تربط بين السلوك الاقتصادي-الاجتماعي (الترف) وبين المصير الكوني (التدمير)[٤]، وفيما تثير عبارة «أمرنا مترفيها» تساؤلات كلاميَّة من قبيل: كيف يأمر الله بالفسق؟ لكنَّ التفسير السُنني ينزّه الله -تعالى- عن الأمر بالفحشاء؛ فـ«الأمر» هنا يأخذ مسارين متكاملين:

أ. **الأمر التشريعي:** يأمر الله المترفين (قادة المجتمع الاقتصادي والسياسي) بالطاعة، والعدل، والإصلاح، وحفظ الميزان. لكن طبيعة «الترف» التي تقتضي العلو

١ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ١١٦.
٢ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٧٧.
٣ - الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٣٧٤. (باب «الذنوب»، ح ٢).
٤ - الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٦، ص ٢٣٤.

والاستكبار تدفعهم إلى مخالفة هذا الأمر فيفسقون، والفسق هنا هو «الخروج عن الاعتدال الفطري»[١].

ب. **الأمر التكويني (الإمداد):** «أمرنا» بمعنى أكثرنا نِعمهم وأمددناهم بالموارد (النفط، والتكنولوجيا، والثروات). وهذا الإمداد للمتأمِّل في حقيقته هو «ابتلاء»؛ فالمترف، بغروره، يقرأ هذا الإمداد استحقاقًا ذاتيًّا وليس أمانة، فيستخدمه في الإفساد (تدمير البيئة، واحتكار الثروة).

وفي سياق التغيّر المناخي، يتجلَّى مصداق قوله -تعالى- «أمرنا مترفيها» في الثورة الصناعيَّة والتكنولوجيَّة الهائلة التي منحها الله للبشريَّة، كان «الأمر» هو استخدام هذه القدرات في «عمارة الأرض». لكن «المترفين» (الدول الصناعيَّة الكبرى، والشركات العملاقة) «فسقوا فيها»، أي استخدموا هذه القدرات في استنزاف الموارد، وتلويث الجو، والإخلال بالتوازن الحراري للأرض[٢].

## ٤. «فحقّ عليها القول»: حتميَّة السُنَن

إنَّ «القول» الذي يحقّ هو قانون الأسباب والمسبَّبات؛ فالله لا يدمِّر القرى ظلمًا بل التدمير هو النتيجة الطبيعيَّة (السُننيَّة) لفسق المترفين[٣]؛ فعندما تفسق البشريَّة عن قوانين «حفظ الأمانة/البيئة»، يحقّ عليها «القول» المتمثِّل في (الأعاصير، والجفاف، والغرق) ليس باعتبارها عقوبة انتقاميَّة عشوائيَّة بل هو -أي القول- تفعيل لسُنن الله في الكون التي انتهكها المترفون.

تتبَّع القرآن معادلة دقيقة لسقوط الحضارات، يمكن تطبيقها حرفيًّا على الحضارة الرأسماليَّة المعاصرة:

أ. **مرحلة الترف:** ﴿**أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ - تراكم الثروة والتمتع المفرط.

ب. **مرحلة الفسق:** ﴿**فَفَسَقُوا فِيهَا**﴾ - الخروج عن الطاعة وعن نظام الفطرة (تدمير البيئة، والظلم).

---

١ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٥٨.
٢ - فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين، ج ٥، ص ٢٣٦. (مادة «فسق»).
٣ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٥٨.

ج. **مرحلة استحقاق العذاب: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾** - تفعيل السُنَّة الكونيَّة (نقطة اللا عودة في المناخ).

د. **مرحلة التدمير: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾** - الانهيار الحضاري والبيئي.

يرى (الشهيد الصدر) أنَّ الترف يفسد "بأس الأمَّة" ويحطم مناعتها، ما يجعلها عاجزة عن مواجهة التحدِّيات[١]، لذلك فإنَّ مجتمع الترف المعاصر، رغم تقدّمه التكنولوجي، يبدو هشًّا للغاية أمام ردود الفعل الطبيعة (أعاصير، وفيضانات)، ما يؤذن بقرب تحقّق سُنَّة الاستبدال أو الهلاك، وقد يتساءل بعضٌ: لماذا لا نرى العقوبة فورًا؟ يشرح القرآن ذلك بسُنَّة «الإملاء» و«الاستدراج». **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾**. التطوّر الصناعي والوفرة الماديَّة المعيشة اليوم قد تكون هي عين «الاستدراج»؛ فقد يفتح الله أبواب كلّ شيء[٢]، حتى إذا **﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾** و**﴿وَظَنّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾**، أُخذوا بالكوارث بغتة[٣]، فصحيح أنَّ الاحتباس الحراري عمليَّة تراكميَّة بطيئة (استدراج)، لكن نتائجها عادة ما تكون فجائيَّة ومدمِّرة.

## ٥. «الرهط المفسدون».. الشركات العابرة للقارات في العصر الحديث

أحد المفاهيم التي تناولها القرآن في سياق الحديث عن الفساد الاجتماعي والبيئي هي ما يعرف بـ «لوبيَّات» أو مجموعات المصالح، ويشير القرآن إلى «رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ»، والرهط هم المجموعة المتجانسة التي تملك القوَّة والنفوذ، وفي عصر العولمة، يمكن القول إن الرهط المفسدون ينطبق على «الشركات العابرة للقارات» واللوبيَّات الصناعيَّة التي تسيطر على اقتصاد العالم؛ فهذه الكيانات تمثِّل «المترفين» بأجلى صورهم، فهم الذين يمتلكون الموارد، ويوجّهون السياسات، ويفرضون ثقافة الاستهلاك، وينشرون فسادهم في الأرض، ليس فسادًا خُلُقيًّا تقليديًّا فحسب بل هو فساد «بيئي» ممنهج من خلال:

---

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنيَّة (التفسير الموضوعي)، ص.ص. ١٣٣-١٣٤.

٢ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٣٤٦.

٣ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص.ص. ٣٩-٤٠.

أ. **احتكار الموارد:** وتحويل «المشاعات العالميَّة» -الهواء، الماء، الغابات- إلى سلع خاصَّة، وهو ما حذَّر منه مؤتمر ريو ١٩٩٢ الذي خلص التقرير الختامي فيه إلى أنَّ "السبب الرئيس في تدهور البيئة العالميَّة بصورة مطّردة هو النمط غير المستدام للاستهلاك والإنتاج، وتحديدًا في البلدان الصناعيَّة، وهو مسألة خطيرة تؤدّي إلى تفاقم الفقر والاختلالات"[١]، وهذا النوع من الاختلال (الاحتكار) يتعارض مع أكثر مبادئ الفطرة الإنسانيَّة بداهة التي يقرّها التشريع الإسلامي، يقول (السيد محمد باقر الصدر): «فالمصادر الطبيعيَّة - وهي التي عبرت عنها الرواية بالماء والكلأ والنار - مباحة لجميع الناس، وليس لفرد دون فرد حقّ اختصاصي فيها يمنع الآخرين عن الانتفاع بها... وهذا هو المبدأ العام في المشتركات العامة»[٢].

ب. **الإفساد في الحرث والنسل:** استخدام التكنولوجيا الحيويَّة والهندسة الوراثيَّة والمبيدات التي تدمّر التنوّع البيولوجي وتفسد التربة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾.

ج. **تصدير التلوث:** نقل الصناعات الملوّثة إلى دول الجنوب الفقيرة[٣]، ما يجسّد أبشع صور «الاستكبار» البيئي؛ حيث يدفع الفقراء ثمن ترف الأغنياء.

### ٦. مفهوم التسخير: أمانة لا هيمنة مطلقة

يقع سوء الفهم الأكبر في العقليَّة الحداثيَّة في تفسير آيات «التسخير» ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾، فقد فُسّر التسخير خطًا على أنَّه إذن مطلق بالاستغلال والهيمنة، لكنَّه يجب التفرقة بين مفهومين رئيسين:

أ. **التسخير في الميزان:** يوضح البحث الكلامي أن التسخير يعني «تذليل الشيء وتهيئته

---

١ - الأمم المتحدة: تقرير مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئة والتنمية، المجلد الأول، ص ٢٦. (القرار ١، المرفق الثاني: جدول أعمال القرن ٢١، الباب ٤، الفقرة ٤,٣).

٢ - محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص ٥٢٣.

٣ - محمد سعيد صباريني ورشيد الحمد: البيئة ومشكلاتها، ص ١٨٥.

لغايَة كماليَّة» ضمن نظام دقيق. التسخير هو «علاقة وظيفيَّة» تقتضي المسؤوليَّة. الإنسان مُستأمن على هذه المسخرات، وليس مالكًا حقيقيًا لها (المالك هو الله)[١].

ب. **الطغيان في الميزان:** حذَّر القرآن من الإخلال بهذا النظام: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**﴾ [الرحمن: ٧-٨]. يمكن عدّ التغيّر المناخي هو تجسيد لـ "الطغيان في الميزان"؛ فإذا أخلَّ الإنسان بميزان الغازات الدفيئة (على سبيل المثال)، أو ميزان التنوّع البيولوجي، أو ميزان دورات المياه، فإنَّه نتيجة لـ "طغيانه" في طلب الرفاهية سيُبتلى بالكوارث وردّات الفعل العنيفة.

## ثالثًا: البيئة أمانة إلهيَّة

بينما يحدّد الفكر التنموي الحديث ثلاثة أبعاد للتنمية المستدامة (الاقتصادي، والاجتماعي، والبيئي)، ومن وجهة نظر إسلاميَّة يمكن وضع اليد على غياب البيئة بوصفها «بُعدًا وجوديًّا» يتحرَّك فيه الإنسان في مساره من عالم الخلق إلى القيامة، والذي يتجلَّى فيه «الدور الوظيفي» للإنسان بصفته «خليفة»، ويمكن القول إنَّ الآية ٤١ من سورة الروم الوثيقة القرآنيَّة الأظهر في توصيف الأزمة البيئيَّة: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾، وتؤكِّد التفاسير أنَّ الفساد هنا عام يشمل اختلال النظم الكونيَّة (انحباس المطر، وغلاء الأسعار، والأوبئة، والحروب). يربط المفسِّرون، كـ (الشيخ ناصر مكارم الشيرازي)، بين "كسب الأيدي" وبين الكوارث، يقول: "ظاهر الآية أنّ الفساد يشمل كلّ انحراف ومساوئ تظهر في قالب فردي أو جماعي... والملفت للنظر أنّ الآية تصرّح بأنّ هذا الفساد هو نتيجة أعمال الناس... (ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون)... وهذه «لام العاقبة» تشير إلى أنّ الله سبحانه لا يذيقهم إلاّ بعض أعمالهم... وهذا هو (الهدف التربوي) لما يصيب الإنسان من نكبات ومشاكل نتيجة لذنوبه... لكي يوقظهم من غفلتهم، ويعيدهم إلى جادة الحق والصواب"[٢].

---

١ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٨، ص ١٦٥.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٣، ص ١٩٦.

يشير النصّ القرآني إلى أنَّ الكوارث الحالية ليست «كلّ» العقاب، بل «بعضه»: أي إنَّها «جرعة تـذوّق» (ليذيقهم) لمرارة أعمالهم، والهدف هنا ليس الانتقام، بل «الرجوع» (لعلهم يرجعون)، يقول (الشـيخ محمد جواد مغنية): «... ومعنى الآية بمجملها أنَّ الله -سـبحانه- سـخَّر الكون للإنسان ليستغلّه في مصلحته ومنفعته، فأساء الإنسان التصرّف، واستغلّ الطبيعة للشرّ والفساد، فارتدّ الشرّ والفسـاد عليه، وأذاقه الله وبال أمره ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ عن غيهم»[١]. فالرسـالة من وراء الفيضانـات والحرائق هي دفع البشريَّة لمراجعة نمط حياتهـا المترف، والعودة إلى «نظام الاعتدال»، وتجبر الإنسان على التخلّي عن غطرسته.

## ١. دستور العلاقة مع الطبيعة.. نهج البلاغة نموذجًا

في مواجهة هذه الأزمة، يقدّم الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في «نهج البلاغة» نموذجًا للتنمية المستدامة يسبق الطروحات المعاصرة بقرون. يرتكز هذا النموذج على محوريَّة «عمارة الأرض» ومسؤوليَّة الحاكم والمحكوم تجاه «البلاد والعباد».

## ٢. «عمارة الأرض» مقابل «استجلاب الخراج»

في عهده لـ (مالك الأشـتر)، يضع الإمام علي (عليه السلام) القاعدة المركزيَّة للاقتصاد البيئي، فيقول (عليه السلام): «وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأَرض أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلابِ الْخَرَاجِ؛ لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بَالْعِمَارَةِ»[٢]، وهذا النصّ يفكّك الرأسماليَّة الريعيَّة القائم على الربح السريع (الخراج/الضرائب/الأرباح) على حساب استدامة الموارد (العمارة)، فالاستدامة شرط الربح، والإمام يقرّر أنَّ «من طلـب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العبـاد»، ويمكن القول إنَّ خراب البلاد هنا هو التعبير الدقيق عن التدهور الناتج عن الاستغلال المفرط للموارد دون تجديدها، والتنمية المستدامة عند الإمام هي «عمارة» تسبق «الجباية».

---

١ - محمد جواد مغنيَّة: التفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٤٦.
٢ - الشريف الرضي (جامع): نهج البلاغة، ص ٤٣٧. (من كتاب له للأشتر النخعي، رقم ٥٣).

وفي خطبة أخرى، يوسع الإمام علي عليه السلام دائرة التقوى لتشمل البيئة: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وبِلادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ والْبَهَائِمِ»[١]، ليؤسّس هذا النص إلى ما يمكن أن نسميه «الحق البيئي»: حيث البقاع (الأرض، والغابات، والأنهار) والبهائم (التنوّع البيولوجي) ليست مجرد موارد للاستغلال، بل هي كيانات لها «حقوق» والإنسان «مسؤول» عنها أمام الله يوم القيامة، وهنا تُنفى المركزيَّة البشريَّة المطلقة، أي إنَّ الإنسان ليس مالكًا مطلقًا، بل هو «مستأمن»، لتصبح العدالة في فكر الإمام غير مقتصرة على البشر، بل تشمل العدالة حتى مع المنظومة البيئيَّة.

وفي رواية أخرى يقول الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلا بِمَا مُتِعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ»[٢]، هذه المعادلة الاجتماعيَّة يمكن قراءتها بيئيًّا وعالميًّا من وجهة نظر «العدالة المناخيَّة»؛ فما عانت دول الجنوب (الفقراء) من الجفاف والغرق ونقص الموارد، إلا بما «مُتّع» به مترفو الشمال (الأغنياء) من استهلاك مفرط للطاقة والموارد؛ فالترف في مكان يولِّد القحط والهلاك في مكان آخر، واستئثار القلّة (المترفين) بالموارد (الكربون، والطاقة) يؤدّي حتمًا إلى حرمان الأكثريَّة وتدمير بيئتهم.

## رابعًا: نحو نموذج «الاقتصاد» والاعتدال.. الخلاص من ثقافة الهلاك

### ١. نقد الثقافة الاستهلاكيَّة: وَهْمُ السعادة

بينما وصلت القدرات التكنولوجيَّة إلى ذروة تمكّنها نظريًّا من تلبية حاجات البشريَّة بكفاءة واستدامة، يتَّجه النظام الاقتصادي العالمي نحو مسار تدميري لاعتماده على «صناعة الندرة» و«هندسة عدم الرضا» و«خلق الحاجات» عبر استراتيجيَّات خبيثة مثل «التقادم المبرمج»[٣]، فهذا النظام، الذي يُنظر إليه ظاهريًّا على أنَّه «قمة العقلانيَّة الرأسماليَّة»، يكشف عند التأمُّل فيه عن آليات تتطابق بشكل ما مع المفهوم القرآني لـ «الإغواء الشيطاني» أو «التزيين».

وتكشف النصوص الدينيَّة والتحليلات الفلسفيَّة أنَّ «ثقافة الاستهلاك» مبنيَّة على وَهْم، فعلى

١ - الشريف الرضي: نهج البلاغة، ص ٢٤٢، خطبة ١٦٧.

٢ - الشريف الرضي: نهج البلاغة، ص ٥٣٣، باب «حكم أمير المؤمنين»، ح ٣٢٨.

3 - Bernard London: Ending the Depression Through Planned Obsolescence, p. 2.

سـبيل المثال يربط (الدكتور علي خضر الشـكري) بين «فسـاد الفطرة» وبين البيئة الاجتماعيَّة التي تروّج للعبث واللا مبالاة التي هي أهمّ مقدّمات الثقافة الاسـتهلاكيَّة، وهذه بدورها تغذّيها الشركات العابرة للقارات (الرهط المفسدون) التي تدفعهم نحو وَهْم إمكانيَّة ملء الفراغ الروحي بوهم امتلاك (والامتلاء بـ) المادَّة والمزيد من الاستهلاك، لكنَّها تفشل، فتنتج «ضنك المعيشة»؛ فالرأسـماليَّة تتعامل مع الإنسان باعتباره كتلة من الشهوات يجب إثارتها باستمرار، ما يدفع نحو شراء مـا لا يُحتـاج، وإلقاء الفائض في المحيطـات، ما يخلق جبالاً من النفايات وجوًّا مشـبعًا بالكربون؛ ففي تفسـير قوله تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [البقرة: ٢٦٨]، يرى بعض المفسّرين أنَّ هذا «الفقر» ليس فقط العوز المادي بل يشـمل حالة نفسيَّة من الخوف الدائم من الفوات والنقص، والنظام الاقتصادي الحديث يقتات على هذا الخوف؛ فهو يزرع في المستهلك شعورًا دائمًا بالنقص وعدم الكفاية من خلال تكريس استراتيجيَّات تسويق مثـل «الخوف من الفوات» (FOMO - Fear of Missing Out) التي هي تطبيق حرفي لـ "وعد الشـيطان بالفقر"؛ حيث يجري إيهام المسـتهلك بأنَّه سيخسر "فرصة العمر"، أو سيفقد مكانته الاجتماعيَّة إذا لم يقم بالشراء الفوري، بل إنَّ اسـتراتيجيَّات مثل خلق "الاستعجال الزائف" من قبيل وضع عدَّادات وقت وهميَّة، أو رسـائل "تبقى قطعتين فقط" ليس لها هدف إلا إثارة الذعر ودفع المستهلك لاتخاذ قرار تغلب فيه الغريزة على العقل.

وإذا كان "الـترف" هـو المحرّك النفـسي، فإنَّ النظـام الاقتصادي الحديث قـد ابتكر آليَّات "شـيطانيَّة" (بالمعنى القـرآني للإغواء) لضمان اسـتمرار هذا الترف، حتى لـو كان الثمن دمار الكوكـب؛ حيث تحاول الرأسـماليَّة إقناع الناس بـأنَّ الحلَّ يكمن في "الكفـاءة" والتكنولوجيا دون الحاجة لتغيير نمط الحياة المترف. لكنَّ الأبحاث الاقتصاديَّة تواجهنا بـما يُسـمَّى "مفارقة جيفونز"؛ حيث تنصّ المفارقة على أنَّ التحسـينات التكنولوجيَّة التي تزيد من كفاءة اسـتخدام المورد (مثل محرّكات سـيارات تسـتهلك وقودًا أقل) تؤدّي فعليًّا إلى زيادة الاسـتهلاك الكلي لذلك المورد بدلاً من تقليله[1]؛ لأنَّ انخفاض التكلفة يشـجّع على المزيد من الاسـتخدام؛ فقد

1 - William Stanley Jevons: The Coal Question, p. 103.

لاحــظ الاقتصادي (جيفونز) قديمًا أنَّ تحســين كفاءة محرّكات البخار زاد من اســتهلاك الفحم بشكل هائل. واليوم، نرى أنَّ السيارات الموفِّرة للطاقة لم تقلّل الانبعاثات بل شجَّعت الناس على القيادة لمسافات أطول، وشراء سيَّارات أكبر، والسفر أكثر، هذه المفارقة تؤكّد حقيقة قرآنيَّة: الآلة (الوسيلة) لا تصلح فساد النفس (الغاية)... أي إنَّه طالما أنَّ النفس محكومة بـ «الهلوع»، وشهوة «التكاثر» والرغبة في المزيد، فإنَّ أيَّ توفير ناتج عن التكنولوجيا ســيجري «ابتلاعه» فورًا لخدمة المزيد من الترف، فالتكنولوجيا دون تزكية للنفس تزيد الإنسان قدرة على الإفساد.

## ٢. التقادم المبرمج والموضة السريعة: مأسسة كُفر النعمة

مــن أخطر آليَّات الترف الحديث هي اســتراتيجيَّة «التقادم المبرمــج»؛ حيث تتعمَّد الشركات تصميم المنتجات لتتلف أو تفقد جاذبيّتها بعد فترة قصيرة، لإجبار المستهلك على شراء البديل، ويولِّد هذا السلوك جبالاً من النفايات الإلكترونيَّة والنسيجيَّة، ويستنزف الموارد النادرة بلا طائل. يُعتبر هذا شكلاً من أشكال «العنف البطيء» ضدّ الكوكب وسكانه.

تاريخيًّا، لم يكن قِصَر عمر المنتجات نتيجة عجز تقني، بل كان قرارًا إداريًّا واعيًا من الكارتيلات الباحثــة عن الربح، ويُعدّ "كارتل فيبــوس" (Phoebus cartel) (١٩٢٤-١٩٣٩) من أقوى الأدلَّة عــلى جذور هذه الممارســة؛ ففي أوائل القــرن العشرين، كانت شركات مثــل "جنرال إلكتريك" و"فيليبس" و"أوسرام" تتنافس لإنتاج مصابيح إنارة تدوم طويلاً (تصل إلى ٢٥٠٠ ساعة)، لكنَّهم أدركــوا أنَّ الكفاءة تعني انخفاض المبيعــات، ثمّ في اجتماع في جنيف عام ١٩٢٥، اتّفق الكارتل عــلى توحيد عمر المصباح ليصبح ١٠٠٠ ســاعة فقــط[1]، ولم يكن هذا «توحيــدًا للمعايير» بل «توحيدًا للفساد»؛ حيث جرى فرض غرامات ماليَّة على أي مصنع ينتج مصابيح تدوم أكثر من الحدّ المسموح به، فتحوَّلت الهندسة من علم لتحسين الحياة إلى أداة لضمان الفشل، حينها مثّلت هذه اللحظة التاريخيَّة ولادة «اقتصاد الهدر»؛ حيث أُعيد تعريف «المنتج عالي الجودة» باعتباره «المنتج

1 - Markus Krajewski: «The Great Lightbulb Conspiracy,» IEEE Spectrum, vol. 51, no. 10, p. 58.

السيّء» للأرباح، وهو قلب المنطق الشيطاني الذي يرى في الإصلاح خسارة. بهذا، يمثّل «التقادم المبرمج» خيانة للأمانة، وغشًّا تجاريًّا، وتجسيدًا صارخًا لمفاهيم «التبذير» و«الإسراف» المحرّمة شرعًا، باعتباره «كفر بالنعمة»؛ فبدلاً من صيانة النعمة (المنتج) وإطالة عمرها، يجري تدميرها عمدًا لمراكمة الأرباح، وهذا السلوك يتنافى مع مبدأ «إصلاح المال» وحفظه في الفقه الإسلامي.

كذلك، تُعدّ صناعة الموضة السريعة المثال الأبرز على تحوّل السلوك البشري إلى كارثة بيئيَّة مدفوعة بوَهْم التجديد المستمرّ؛ فإذا كان التقادم المبرمج هو تلاعب بـ «الوظيفة»، فإنَّ الموضة السريعة هي تلاعب بـ «الهويَّة» و«الغرور»؛ حيث جرى تحويل الملابس من سلع معمّرة إلى سلع استهلاكيَّة سريعة التلف، فوصل الحال إلى أنَّه -إحصائيًّا- يشتري العالم اليوم ٨٠ مليار قطعة ملابس سنويًّا، بزيادة ٤٠٠٪ عمّا كان عليه الحال قبل عقدين، وبحسب دراسات فإنَّ «صناعة الأزياء» مسؤولة عن ١٠٪ من انبعاثات الكربون العالميَّة (أكثر من الطيران والشحن البحري مجتمعين)، وتستهلك ٩٣ مليار متر مكعب من المياه سنويًا[١].

وتتجسَّد الآية الكريمة ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١] في ما يمكن أن نسمّيه «مستعمرات النفايات»، وهي المناطق التي أصبحت مكبات لنفايات العالم الغربي «المترف»، مثل:

**أ. صحراء أتاكاما (تشيلي): مقبرة الموضة**

في صحراء أتاكاما، إحدى أكثر المناطق جفافًا في العالم، تتراكم جبال من الملابس غير المباعة تصل ما بين ٣٩,٠٠٠ إلى ٥٩,٠٠٠ طن من الملابس سنويًّا من ميناء إيكويكي؛ حيث ما لا يجري بيعه يُلقى في الصحراء، وهذه الأكوام الضخمة من البوليستر (البلاستيك) لا تتحلَّل، بل تطلق سمومًا في الهواء والمياه الجوفيَّة، وقد أصبحت ضخمة لدرجة أنَّها باتت مرئيَّة من الفضاء عبر الأقمار الصناعيَّة[٢].

---

1 - Kirsi Niinimäki, et al.: «The Environmental Price of Fast Fashion,» Nature Reviews Earth & Environment, vol. 1, no. 4, pp. 189190-.

2 - Agence France-Presse (AFP): «Chile›s desert dumping ground for fast fashion leftovers,» France 24.

**ب. سوق كانتامانتو (غانا): «ملابس الرجل الأبيض الميت»**

تستقبل غانا أسبوعيًّا ١٥ مليون قطعة من الملابس المستعملة، تُعرف محليًا بعبارة Obroni Wawu ("ملابس الرجل الأبيض الميت")، ونظرًا لرداءة جودة "الموضة السريعة"، فإنَّ ٤٠٪ من هذه الواردات هي نفايات فور وصولها، وحيث لا تستطيع البنية التحتيَّة استيعاب هذا الكم، عندها يكون المصير الحتمي هو تشكُّل مكبات عشوائيَّة تشتعل فيها النيران، مطلقة دخانًا سامًّا يخنق السكّان المحليّين، ومن ثَمَّ تجرف الأمطار هذه النفايات النسيجيَّة إلى البحر، لتشكل "شباكًا" من الملابس المتشابكة على الشواطئ وفي قاع المحيط، مسبّبة دمارًا للحياة البحريَّة[1].

**٣. الفجوة المعيشيَّة وانبعاثات الرفاهيَّة**

تشير البيانات الحديثة إلى فجوة هائلة في المسؤوليَّة عن الانبعاثات؛ حيث تلعب «النخبة المترفة» الدور الأكبر في تدمير المناخ، على سبيل المثال تشير تقارير «أوكسفام» إلى أنَّ أغنى ١٪ من البشر يصدرون انبعاثات كربونيَّة تفوق ما يصدره أفقر ٥٠٪ من سكان الأرض مجتمعين[2]، كما أنَّ انبعاثات الطائرات الخاصَّة واليخوت الفاخرة لـ ١٢ مليارديرًا فقط في المملكة المتحدة تعادل انبعاثات ١٩,٠٠٠ مواطن عادي في عام كامل[3]، فضلاً عن استثمارات هؤلاء المترفين في الصناعات الملوّثة التي تضاعف أثرهم البيئي بآلاف المرّات.

هذا السلوك يجسّد مفهوم «العلوّ في الأرض» ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]؛ فاستخدام طائرة خاصّة لرحلة ترفيهيَّة قصيرة، مع علم صاحبها بأنَّها تحرق أطنانًا من الوقود وتلوث الجو، هو قمة "الأنانيَّة" و"الاستكبار"، هذا السلوك إعلان بأنَّ "راحتي الشخصيَّة ورفاهيَّتي أهم من سلامة النظام البيئي وحياة ملايين البشر الذين سيتضرَّرون من الفيضانات والجفاف". لذا، فهذا الظلم البيئي يستدعي "المقت الإلهي"؛ فالله تعالى لا يحبّ المسرفين ولا يحب المستكبرين، والعدالة المناخيَّة تتطلب محاسبة هؤلاء المترفين وتحميلهم تكلفة فسادهم وإفسادهم.

1 - Tom Grant: «Dead White Man's Clothes,» ABC News.

2 - Oxfam International: Confronting Carbon Inequality, p. 2.

3 - Oxfam International: Carbon Billionaires, p. 8.

### ٤. الإسراف القهري والخواء الروحي

على النقيض من وعود السعادة، تظهر الدراسات أنَّ النزعة الاستهلاكيَّة مرتبطة في حقيقتها بالقلق والاكتئاب؛ فظواهر مثل «الإنفاق القهري» أو «إنفاق الهلاك»، ما هي إلا ردَّات فعل نفسيَّة يائسة تجاه الأزمات[١]؛ حيث يستهلك الإنسان ليهرب من القلق، ما يزيد من تدمير البيئة ويزيد من فراغه الروحي؛ فالنفس المترفة هي نفس «جائعة» وجوديًّا، لا يشبعها المادة، وكلّما زاد استهلاكها زاد عطشها، مصداقًا للحديث الشريف: «مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ دُنْيَا وَطَالِبُ عِلْمٍ ... وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَرَامًا تَكَاثُرًا كَانَ طَالِبَ دُنْيَا»[٢]. وطالب الدنيا المترف هو الذي يلتهم الكوكب في محاولة بائسة لملء ثقب روحي لا يملأه إلا ذكر الله والقناعة.

## خامسًا: البديل الإسلامي: «الاقتصاد» و«الزهد الإيجابي»

الأزمة التي يعرضها العالم المعاصر لا تعود في جذورها إلى نقص في الموارد أو التكنولوجيا، بل إلى خلل بنيوي في «المفاهيم» الحاكمة للعلاقة بين الإنسان والمادة؛ فقد رسَّخت الحداثة الماديَّة نموذجًا اقتصاديًّا قائمًا على تعظيم المنفعة والنمو اللا متناهي، محوّلةً الطبيعة من «شريك في الوجود» إلى مجرَّد «خزان للموارد»، والإنسان من «مستخلف» مؤتمن إلى «مستهلك» نهم.

في هذا السياق، يبرز الطرح الإسلامي، وتحديدًا في أدبيَّات مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ليقدِّم رؤية مغايرة جذريًّا لمفهوم "الاقتصاد" ومفهوم "الزهد"، وهي رؤية تتجاوز السطحيَّة الوعظيَّة لتلامس جوهر الأزمة الوجوديَّة، فالفرضيَّة المركزيَّة لهذا الاتجاه أنَّ الإسلام لا يرى في الفقر فضيلة، ولا يدعو إليه باعتباره قيمة بذاته، بل يدعو إلى "الاقتصاد" بمفهومه اللغوي والاصطلاحي الدقيق، أي "القصد" والتوسّط: فالاقتصاد هنا ليس مجرَّد علم لإدارة الثروة وتنميتها فحسب، بل هو "منهج حياة" وفلسفة وجوديَّة تقوم على الاعتدال واستخدام الموارد بقدر "الحاجة" (الضرورة)، وتقديم الفضل ليوم الفاقة. ويترافق مع هذا المفهوم ما يمكن اصطلاحه بـ "الزهد

1 - Tim Kasser: The High Price of Materialism, p. 22.

٢ - الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٦. (باب «نوادر فضل العلم»، ح ١).

البيئي"، والذي يبدأ بالتحرّر النفسي من عبوديَّة السلع باعتبارها خطوة أولى لإنقاذ البيئة. فالمؤمن الذي يكتفي بـ "بُلغة من العيش" بالمفهوم الديني، هو في الحقيقة يمارس أرقى أشكال "تقليل البصمة الكربونيَّة" بالمفهوم البيئي الحديث، على سبيل المثال في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "... إِنَّمَا السَّرَفُ أَنْ تَجْعَلَ ثَوْبَ صَوْنِكَ ثَوْبَ بِذْلَتِكَ"[1]، والحديث يشير بدقَّة إلى مفهوم استهلاك ما هو ثمين أو معدّ للبقاء [ثوب الصون/المناسبات] في غير محلّه، ما يسرّع في إتلافه باستخدامه [ثوب البذلة/الخدمة]، وهو ما يطابق مفهوم هدر الموارد في الموضة السريعة.

فالمؤمن المدبّر الزاهد هو «سيّد» المادَّة يستخدمها لغاياته السامية، وليس «عبدًا» لها تستهلك عمره وموارده. وبهذا المعنى، يكون التحرّر من عبوديَّة السلع هو الخطوة الأُولى والضروريَّة لإنقاذ البيئة، وعندما «لا تملكك» الأشياء، فإنَّك لا تسعى لتغيير مقتنياتك كلّ عام مجاراة للموضة، ولا تشتري ما لا تحتاج إليه استجابة لضغط الإعلانات. هذا «التحرّر» يبطل محرّكات التلوث البيئي والاستهلاك المفرط، وبهذا تتحوّل التنمية من غاية في ذاتها إلى أحد أشكال «عمارة الأرض» بما «ينفع الناس» و«يمكُث في الأرض»، وليست «تنمية الأرقام» التي تدمّر الأرض؛ حيث تشير التقارير البيئيَّة الحديثة إلى أنَّ الحلول التقنيَّة وحدها لن تكفي لمواجهة التغير المناخي، بل لا بدّ من تغيير جذري في أنماط الحياة، وهنا يقدّم الإسلام «الزهد» ليس حالة سلوكيَّة معنويَّة، بل استراتيجيَّة بقاء واستدامة حضاريَّة.

هذا مع الأخذ في الاعتبار أنّ التحوّل من «اقتصاد الرغبة» إلى «اقتصاد الحاجة»، والسعي لتطبيق مفهوم «الحياة الطيبة» التي تمنع الهلاك يتطلّب تفعيل عدّة أبعاد مفهوميَّة:

### ١. البُعد المعرفي: الشراكة في العبوديَّة لله

من خلال إعادة تعريف العلاقة مع الطبيعة بوصفها علاقة «تسبيح» وشراكة، لا علاقة صراع وسيطرة، فمعرفة «من أين وإلى أين» تفرض احترام الطريق الذي نسير فيه (البيئة)، فإذا كان المنظور المادّي الوضعي، يعرّف الطبيعة بأنَّها «مادَّة» قابلة للاستغلال، وخالية من الروح أو

١ - الكليني: الكافي، ج ٦، ص ٤٤١. (كتاب الزي والتجمل، باب «لباس الشهرة والخيلاء»، ح ٤).

الغايــة، لكنّها في المنظور القرآني كيان «ناطق»، ومســبّح، وشريك في العبوديَّة؛ حيث إنَّ آيات مثل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] تؤسّس لتحوّل أنطولوجي (وجودي) يغيّر قواعد التعامل مع البيئة من الأســاس، ويشير (العلامة الطباطبائي) في تفسيره «الميزان في تفسير القرآن» إلى أنّ تسبيح الكائنات ليس مجرد مجاز شعري أو دلالة حاليَّة (بمعنى أنَّ وجودها يــدل على الخالق فقط)، بــل هو حقيقة وجوديَّة وسريان للشــعور في جميع ذرات الوجود، أي إنَّ كل موجود، بحســب مرتبتــه الوجوديَّة، يدرك خالقــه وينزهه، وهو ما يعبر عنه بـ «التســبيح التكويني»، هذا الفهم يعني أنَّ الشــجرة أو النهر أو الجبل ليست مجرّد «أشياء» جامدة، بل هي «كائنات عابدة» لها حرمة تكوينيَّة[1].

ويترتّب على هذه القراءة نتيجة خُلُقيَّة جذريَّة، تكرّس مبدأ أنَّ الاعتداء على البيئة بالتلويث أو التدمير العبثي ليس مجرّد إهدار لمورد اقتصادي، بل هو «إسكات لصوت مسبح» واعتداء على كيان يشارك الإنسان في العبوديَّة لله، وهنا تتجلَّى الشراكة الكونيَّة بين الإنسان والطبيعة؛ فكلاهما عبدان لله، وكلاهما مأموران بالتســبيح، أحدهما بلسان المقال (الإنسان)، والآخر بلسان الحال والوجود (الطبيعة).

## ٢. البُعد السلوكي: الاستخلاف ونهاية مركزيَّة الإنسان المطلقة

المفهوم المركزي الثاني الذي يجب أن يحكم تصرّفات الإنسان في البيئة هو «الاستخلاف»، أي اعتبار الإنسان ليس «سيّد الطبيعة» المطلق الذي يحقّ له التصرّف كيفما شاء، بل هو «خليفة» ومستخلف فيها، وأنَّ الملكيَّة الحقيقيَّة والمطلقة لله وحده: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وهذا المبدأ العقدي يفكّك غطرســة وتســلُّط الإنسان الحديث ويستبدلها بمفهوم "الأمانة"، لتصبح ملكيَّة الإنسان للموارد هي "ملكيَّة انتفاع" مقيدة بشروط المالك الأصــلي (الله). وأي تصرّف يخالف مراد المالك (كالإفســاد، والتبذير،

١ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ١١٦.

أو تغيير خلق الله) هو تصرّف باطل شرعًا وخيانة للأمانة، هذا فضلاً عن "المسـاءلة الأخرويَّة" للإنسـان بما هو وكيل، فهو محاسـب بدقّة عن كل مورد استهلكه، هذا الوعي بالمساءلة يخلق "رقابة ذاتيَّة" (التقوى) تكون أكثر فعاليَّة من القوانين الوضعيَّة في حماية البيئة.

### ٣. الإعمار لا الاستنزاف

عندما تكون مَهمَّة الخليفة هي «اسـتعمار الأرض» أي إعمارها ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْـتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْـتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيـبٌ**﴾ [هود: ٦١] ، فهذا يعني الإعـمار بمفهوم التنمية المسـتدامة التي تحفظ أصل المورد وتسـتفيد من ريعه[١]، على عكس الاسـتنزاف الذي يهلك الأصل، حينئذٍ يصبح التحوّل من «المستهلك» إلى «المستخلف» يعني تبنّي نمط حياة «أخضر» نابع من عقيدة، يرى في غرس الشـجرة عبادة، وفي حماية الماء طاعة، وفي عدالـة توزيع الفرص والموارد حقًّا للجميع، وفي محاربة التلوث جهادًا ضدّ «الفسـاد في الأرض»، حينها تصبح المتانة قيمة إيمانيَّة، أي إنَّ إنتاج سـلع تعمـر طويلاً باعتبار ذلك تطبيق لحديث: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» لا يتعلّق فقط بالامتثال للأمر التشريعي في تأديـة حقوق الآخر، بل في الامتثال للأمر التكويني في الاضطلاع بمسـؤوليّات الخلافة في لأرض، ويصبح الإتقان هنا بمعنى المتانة والديمومة، نقيض «التقادم المبرمج» الذي تدعو إليه الحضارة الشـيطانيَّة. هذا فضلاً عن ضرورة إلزام الدول والشركات بالمسؤوليَّة الممتدّة للمنتج بعد انتهاء حياته، لمنعها من تصدير «فسادها» إلى المجتمعات والدول المستضعفة.

### ٤. البُعد التشريعي: تفعيل القواعد الفقهيَّة البيئيَّة

يقدّم الإسلام منظومة من القواعد الحاكم للمصلحة العامة التي تنطلق من حفظ نظام الكون، من قبيل قواعد: «لا ضرر ولا ضرار»، و«حماية المشتركات» (الماء، والهواء)، وتحريم الإسراف والتبذير باعتبارهما جرائم بيئيَّة تستوجب التعزير، هذه القواعد أسَّست العمود الفقري لفقه البيئة.

---

١ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان، ج ١٠، ص ٣٠٩.

بتكريس مبدأ يمنع أي استخدام للحقّ الشخصي إذا أدَّى إلى ضرر بالآخر، وبالتالي اعتبار كلّ نشاط اقتصادي أو صناعي يسبّب ضررًا للبيئة (تلوّث هواء، وتسميم مياه جوفيَّة، وضجيج، وإبادة أنواع) يندرج تحت «الضرر» و«الضرار» المحرّم شرعًا، والقاعدة تشمل الضرر المباشر وغير المباشر، الحالي والمستقبلي، وبما أنّ تدمير البيئة يضرّ بصحَّة الإنسان وبحقوق الأجيال القادمة، فهو يقع تحت طائلة التحريم القطعي، ويوجب «الضمان» (التعويض)، وإزالة الضرر.

وأسَّس الإسلام نظامًا فريدًا للملكيَّة العامة للموارد الطبيعيَّة الأساس، فقد ورد في الحديث: "الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار"[١]، وهنا المشتركات: المياه (الأنهار والبحار)، والمراعي (الغطاء النباتي الطبيعي)، ومصادر الطاقة (النار/النفط/الغاز) هي ملكيَّة عامة للأمّة لا يجوز خصخصتها بطريقة تؤدّي إلى احتكارها أو حرمان العامَّة منها، ولا يجوز تلويثها؛ لأن في ذلك اعتداءً على حق الشركاء (المجتمع)، كما ألغى الإسلام الحمى الخاص، وهو «الحمى» الجاهلي (حيث كان الأقوياء يسيطرون على المراعي)، وأسَّس «الحمى العام» للمصلحة العامّة، مثل حمى خيل المسلمين أو إبل الصدقة، وهذا يؤصّل لمشروعيَّة إنشاء «المحميّات الطبيعيَّة» التي تمنع فيها الدولة الصيد أو الاحتطاب لحفظ التوازن البيئي.

كذلك، فإنّ من أدقّ التشريعات البيئيَّة في الفقه الإسلامي، وتحديدًا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، أحكام «حريم» مصادر المياه والعمران، و«الحريم» هنا هو المنطقة المحيطة بالمورد التي يمنع فيها أي نشاط يؤثر على سلامة المورد أو كفاءته، ويشير (الشيخ الطوسي) في «المبسوط»[٢] و(الشهيد الصدر) في «اقتصادنا»[٣] إلى أنَّ هذه المقادير ليست تعبّديَّة بحتة، بل هي تقديرات لرفع الضرر، ما يعني إمكانيَّة توسيعها اليوم (بمئات الأمتار أو الكيلومترات) بناءً على رأي أهل الخبرة لضمان عدم تلوث المياه الجوفيَّة بالمواد الكيميائيَّة الحديثة، ولعلّ هذا ما دعا مراجع التقليد المعاصرين إلى إصدار فتاوى جذريَّة تتناول البُعد البيئي: فـ(السيد علي الخامنئي) أفتى

١ - الحر العاملي: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج ٢٥، ص ٤٣٤. (كتاب «إحياء الموات»، باب «أن الناس شركاء في ثلاثة»، ح ٣٢٢٩٦).
٢ - الطوسي: المبسوط في فقه الإماميَّة، ج ٣، ص ٢٧٥.
٣ - محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص ٥٣٠.

بأنَّ تدمير البيئة وتلويثها معصية وحرام شرعًا، مؤكّدًا أنَّ «الأرض وضعها للأنام» وليست حكرًا لجيل أو فئة[١]، وكذلك أكّد (السيد السيستاني) على المسؤوليَّة الشرعيَّة في الحفاظ على النظافة العامّة والمشتركات[٢].

### ٥. المقارنة بين النموذجين

يقع جوهر الخلاف بين الاقتصاد الوضعي الرأسمالي والاقتصاد الإسلامي في تعريف «الحاجة» و«الرغبة»، وفي الغاية النهائيَّة للنشاط الاقتصادي: يقوم الاقتصاد الرأسمالي المعاصر على فرضيَّة «المشكلة الاقتصاديَّة» المتمثّلة في: ندرة الموارد النسبيَّة مقابل لا نهائيَّة الحاجات الإنسانيَّة، لكن التحليل الإسلامي العميق يكشف خلطًا متعمّدًا في هذه الفرضيَّة بين «الحاجات» و«الرغبات»: فالحاجات هي الضرورات التي لا تقوم الحياة من دونها (طعام، مأوى، كساء، أمن، تعليم)، وهذه الحاجات «محدودة» بطبيعتها وقابلة للإشباع؛ فالإنسان لا يستطيع أكل أكثر من طاقته، ولا لبس أكثر من حاجته في آن واحد، أما الرغبات فهي الشهوات والتطلّعات النفسيَّة للكماليات والتفاخر، وهذه هي التي لا نهاية ولا سقف لها.

يعمل الاقتصاد الحديث عبر آليّات التسويق وصناعة الثقافة الاستهلاكيَّة، وعلى تحويل "الرغبات" إلى "حاجات" وَهميَّة، ما يخلق "اقتصاد الرغبة"، وهذا النمط الاقتصادي هو المحرّك الأول للأزمة البيئيَّة؛ لأن رغبات النفس الأمَّارة لا حدود لها، بينما كوكب الأرض محدود الموارد، ومحاولة إشباع رغبات غير متناهية من موارد متناهية هي معادلة مستحيلة تؤدّي حتمًا إلى الانهيار البيئي. إنّ "اقتصاد الحاجة" الذي يدعو إليه الإسلام، حيث يجري استخدام الموارد بقدر الضرورة والكفاية، مع السعي لتهذيب الرغبات لا إطلاق عنانها، يتطلّب تحوّلاً وانتقالاً من مفهوم "مستوى المعيشة" القائم على الكم، إلى مفهوم "جودة الحياة" أو "الحياة الطيّبة"

---

١ - السيد علي الخامنئي: «بيان بمناسبة أسبوع الموارد الطبيعيَّة»، الموقع الرسمي لمكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي.

٢ - السيد علي الحسيني السيستاني: «المشتركات»، الموقع الرسمي لمكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني.

القائمة على السكينة والتوازن. يرد في الأثر: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا"[١]. هـذا الحديث لا يشرعن الجشـع، ولا يصفه باعتباره حقيقة اقتصاديَّـة يجب الخضوع لها (كما تفعل الرأسـماليَّة)، بل يذمّه ويصف طبيعة النفس غير المُزكّاة، وهنا يبرز الحلّ الإسلامي ليس في توفـير الوادي الثالث (النمو الاقتصادي اللا متناهي المسـتحيل بيئيًّا) بل في «تزكية النفس» لتقنع بما يكفيها، والانتقال من «اقتصاد الرغبة» إلى «اقتصاد الكفاية».

## خاتمة

إنّ الآليّات الاقتصاديَّة الحديثة المتمثّلة في التقادم المبرمج والموضة السريعة ليسـت مجرّد اسـتراتيجيّات ربحيَّة محايدة، بل هي تجسيد مادي ومؤسـسي لوساوس «الإغواء» و«التزيين» و«الوعد بالفقـر»، فهي نظام يقتات على تدمـير «الميزان» البيئي واسـتعباد «الإرادة» البشريَّة، ومواجهـة هذا النظام لا تكون فقط بالتشريعـات القانونيَّة (مثل الحق في الإصلاح)، بل تتطلّب ثورة روحيَّة تعيد تعريف معنى «النجاح» و«السـعادة» بعيدًا عن التكاثر المادي، وتسـتعيد دور الإنسان بوصفه «خليفة» مؤتمن على الأرض، لا «مستهلِكًا» نهمًا يلتهم مقدراتها.

إنّ الأزمة البيئيَّة الراهنة هي مرآة عاكسـة لروح الإنسان المعاصر التي أفسدها الترف وأعمتها المادة؛ فقد أثبتت الدراسـة أنّ "التغيّر المناخي" هو التجسـيد الواقعي لآية "إهلاك القرى" عبر آليَّة "فسـق المترفين"، وأثبتت أنّ الرأسماليَّة الاسـتهلاكيَّة بصفتها النظام الحاضن لهذا الترف، تمثّل "الرهط المفسد" الذي يقود الكوكب نحو الهاوية، ووصلت الدراسة إلى نتيجة مفادها أنّ الخـلاص لن يكون تقنيًـا فقط، بل يجب أن يكون خُلُقيًّا ومعنويًّا؛ فالعـودة إلى "الحياة الطيّبة" التي توازن بين حق "الخليفة" (الإنسان) وحقّ "المستخلف فيه" (البيئة)، وتبني نموذج "عمارة الأرض" العَلوي الذي يقدّم الاسـتدامة على الجبايَّة، هو السبيل الوحيد لتجنّب "الفساد في البر والبحر".

---

١ - الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٤٢١. (تفسير سورة التكاثر).

## لائحة المصادر والمراجع

### أولًا: المراجع العربيَّة


- القرآن الكريم.
- الأمم المتحدة: تقرير مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئة والتنميَّة (ريو دي جانيرو، ٣-١٤ حزيران/يونيو ١٩٩٢)، ج١، منشورات الأمم المتحدة، ١٩٩٣.
- محمد بن الحسن الحر العاملي: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث،مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط٢، ١٤١٤ هـ.
- علي الخامنئي: "بيان بمناسبة أسبوع الموارد الطبيعيَّة"، الموقع الرسمي لمكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي، ٦ آذار/مارس ٢٠١٥.
- الشريف الرضي: نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٦٧ م.
- ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، ط١، ١٤٢١ هـ.
- محمد سعيد صباريني ورشيد الحمد: البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة (٢٢)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٩ م.
- صدر الدين الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقليَّة الأربعة، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٨١ م.
- محمد باقر الصدر: اقتصادنا، دار التعارف للمطبوعات، ط٢١، ١٩٩١ م.
- محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنيَّة (التفسير الموضوعي)، دار التعارف للمطبوعات، ط١، ١٩٨٠ م.
- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٩٩٧ م.
- الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق لجنة من العلماء، مؤسسة

الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٩٩٥ م.

- فخـر الدين الطريحي: مجمع البحرين، تحقيق أحمد الحسـيني، مكتبة الثقافة الإسـلاميَّة، ط٢، ١٤٠٨ هـ.
- محمد بن الحسن الطوسي: المبسوط في فقه الإماميَّة، تصحيح وتعليق محمد تقي الكشفي، المكتبة المرتضويَّة لإحياء الآثار الجعفريَّة، ط١، ١٣٨٧ هـ.
- محمد بن يعقوب الكليني: الكافي. تحقيق علي أكبر الغفاري ومحمد الآخوندي، دار الكتب الإسلاميَّة، ط٤، ١٤٠٧ هـ.
- محمد جواد مغنيَّة: التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٨ م.
- محمد مهدي النراقي: جامع السعادات، تحقيق محمد كلانتر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، ١٩٨٠ م.

## ثانيًا: المراجع الأجنبيَّة

- Agence France-Presse (AFP). «Chile›s desert dumping ground for fast fashion leftovers.» France 24, 8 Nov. 2021.
- Galbraith, John Kenneth. The Affluent Society. 40th Anniversary Edition, Houghton Mifflin Company, 1998.
- Grant, Tom. «Dead White Man's Clothes.» ABC News (Foreign Correspondent), Australian Broadcasting Corporation, 18 Aug. 2021.
- Jevons, William Stanley. The Coal Question: An Inquiry Concerning the Progress of the Nation, and the Probable Exhaustion of Our Coal-Mines. 2nd ed., Macmillan and Co., 1866.
- Kasser, Tim. The High Price of Materialism. MIT Press, 2002.
- rajewski, Markus. «The Great Lightbulb Conspiracy.» IEEE Spectrum, vol. 51, no. 10, Institute of Electrical and Electronics Engineers, 2014.

- London, Bernard. Ending the Depression Through Planned Obsolescence. New York, 1932.
- Meadows, Donella H., et al. The Limits to Growth. Universe Books, 1972.
- Niinimäki, Kirsi, et al. «The Environmental Price of Fast Fashion.» Nature Reviews Earth & Environment, vol. 1, no. 4, Springer Nature, Apr. 2020.
- xfam International. Carbon Billionaires: The Investment Emissions of the World's Richest People. Oxfam, Nov. 2022.
- Oxfam International. Confronting Carbon Inequality. Oxfam, Sep. 2020.